حوليات آداب عين شمس المجلد 52 (عدد يوليو – سبتمبر 2024)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

عقاب دياب ياسين*

محاضر غير متفرغ/ جامعة مؤتة/ الاردن
dr.eqabh@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2024/08/19
تاريخ قبول البحث: 2024/08/26
تاريخ النشر: 2024/09/30

المستخلص:

تناولت هذهالدراسة موضوعاً جديراً بالاهتمام والدراسة في العصر الحاضر، وهو الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية، وهدف البحث إلى: بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية، وبتحكيم العقل يتم حفظ العقل الذي هو أحد الضرورات الخمس التي أمرت الشريعة الإسلامية بالحفاظ عليها، حيث جعلتها مناط التكليف، وبذلك يتحقق للإنسان معرفة الأمور التي تزيل العقل أو تحجبه، والتي نهت عنها كافة الشرائع السماوية، وتكمن أهمية البحث في بيان مكانة العقل في الشريعة الإسلامية،وبيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية.

وسلك الباحث في دراسته هذه على المنهج الاستقرائي من خلال استقراء ما تم بحثه سابقا في موضوع مكانة العقل في الإسلام، وما لم يتم بحثه وتناوله في مجال تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية، ثم من خلال الدراسات السابقة تم اتباع المنهج التحليلي بتحليل ما تم ابرازه في الدراسات السابقة، واستنتاج الأمور المشتركة بين الأديان السماويةوالشرائع الوضعية في هذه الجزئية من هذه الدراسة المتعلقة بالاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

وقد توصلت الدراسة إلى أن الاعتماد على العقل وحدة دون التدبر والاستعانة بالوسائل القطعية المستمدة من الشرائع السماوية يؤدي في غالبه إلى الانحراف والضلال والابتداع، فلا بد من تحكيم العقل إلى فيما يؤدي إلى الحق، والبعد عن الهوى والضلال والأفكار المنحرفة.

الكلمات المفتاحية: العقل،الأديان،السماوية، الوضعية، تحكيم.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2024.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ورحمة الله للناس أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

رفعت الشرائع السماوية كافة بما فيها الاسلام من قيمة العقل، كما ميزت بين العقل وغيره من الأعضاء الهامة في الإنسان؛ فالعقل جزء من الروح، وقد عظَّم القرآن الكريم قيمة العقل في محكم آياته، وبينت وظائفه وخصائصه في الكثير من الآيات مثل التعقل والتدبر والتفكر والتذكر وغيرها،وإذا كان العقل هو مناط التكليف في الشريعة الإسلامية، فإن حفظه إذاً ضرورة لا غنى عنها ولا تستقيم حياة الناس بدون ذلك، ولقد أكثر الله سبحانه وتعالى من ذكر العقل، أو ما يدل عليه كالأفئدة والقلوب، أو ما هو من وظائفه، كالتفكر للدلالة على ضرورته، وأنه هو الأداة التي يستفيد بها الإنسان من فضل الله سبحانه وتعالى، سواء كان ذلك الفضل متعلقاً بمعيشته المادية بما يجنيه من بركات السماء الأرض، أم بنشاطات وما يقوم به من أعمال إنسانية تستند إلى المنهج الوسطي الذي أنزله الله في كتابه أو بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الذي لا يهتدي بهذا المنهجلا يستفيد بعقله في هذا الكون وما فيه من آيات، إلا كما يستفيد الحيوان من طعامه وشرابه

والعقل في القرآن الكريم والسنَّة، أي في الشريعة الإسلامية مضافاً إلى القرآن والسنة، والفقه الإسلامي واجتهادات السلف الصالح، هو الذي يضبط السلوك؛ لذلك إختص الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعقل ليختار اختياراًحكيماً بين الكفر والإيمان ما دام هذا الاختيار الحكيم حكراً على الإنسان وحده دون سائر المخلوقات، وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن العقل يحمي الإيمان، وهو الطريق إليه، وأنه لا تناقض بين العلم والإيمان لأن الذي بدأ مؤمناً زوده الله بالعلم فصار مؤمناً عالماً.

ولقد ميّز الله الإنسان بالعقل وكرمه به على سائر المخلوقات ؛ لأنّه منشأ الفكر الذي جعله مبدأ لكمال الإنسان وفضله على سائر الكائنات، وميَّزه بالإرادة والقدرة على التصرف والتسخير للكون والحياة، بما وهبه من العقل، وما أودعه فيه من فطرة للإدراك والتدبُّر، وتصريف الأمور والمقادير وفق ما علمه من نواميسها وأسبابها ومسبباتها، فيعلو ويحسن اختياره والتزامه بالحق، وإما أن ينحط ويطغى ويفسد باجتناب الحق واتباع الهوى والباطل، فالعقل الإنساني أداة الإدراك والفهم والنظر والتلقي والتمييز، والموازنة بين الخير والنفع والضرر، وهو وسيلة الإنسان لأداء مسؤولية الوجود، والفعل في عالم الشهادة والحياة.

ولذا فقد اهتمت الشريعة الإسلاميةُ بالتربيةِ العقلية؛ لذا فلقد أودعت في العقل التوجه السريع للاستجابة لتعاليم الشريعة الإسلامية والحث على العلم والتعلم، قال تعالى:" اقرأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَق، خلَقَ الإنْسَان مِنْ عَلَقْ، اقْرَأ وَرَبُّكَ الأكْرَم، الذي عَلَّمَ بالقَلَم، عَلَمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق: آية 1-5)، وحثت على التبين والتثبت والتروي في معرفةِ الحقائقِ العلمية، وفهم أسبابها بشتى الوسائلِ من ملاحظةٍ ومشاهدةٍ وتجربة قبل تقريرِ نتائجِها، وإعلانِ أحكامِها، فقال تعالى:" قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكُمْ إن كُنتُم صادِقين" وقوله تعالى:"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لك بِهِ عِلم إنَّ السَّمَعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئولا" ؛ من هنا جاءت هذه الدراسة المتعقلة ببيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تكمن مشكلة الدراسة في الاجابة عن الأسئلة الآتية:

1-ما مفهوم العقل ؟

2-ما مكانة العقل وأهميته في الإسلام؟

3-ما طبيعة الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديانالسماوية والشرائع الوضعية ؟

أهمية الدراسة وأسباب اختيارها:

1-تبرز أهمية هذه الدراسة من قيمة العقل الكبرى في الشريعة الإسلامية ؛ إذ ترتبط التكاليف الشرعية به ارتباطاً وثيقاً،ولا تخفى أهميته في فهم النصوص واستنباط الحكم من قبل المجتهد، الذي اشترط له الشاطبي أن يتصف بوصفين أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها، والثاني: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها[1]

2-تكمن أهمية الدراسة في أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية أغلب أحكامها معللة وموضحة للمقاصد الشرعية، وقد بينها العلماء المجتهدون بعقولهم المتفتحة، وهذا يزيد من أهمية البحث في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية التي كفلها الشرع للحفاظ على العقل الإنساني بلغة العصر ومنهجية البحث المعاصر، والشريعة الإسلامية مرنة وصالحة لكل زمان ومكان تعالج جميع القضايا بمرونة وشمولية، ولما كان الحديثعن مكانة العقل ودوره في فهم النصوص الشرعية وغيرها فضفاضاً، قد يحمله البعض على غير وجهه الصحيح فيدخل في الشريعة ما ليس منها، ويخرج ما هو من صميمها، كان لا بد من البحث في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية، حتى لا يتحول الاحتجاج بها إلى ثغرة يستغلها أعداء الإسلام.

3-إن العقل البشري هو طاقة الإبداع في الإنسان، فيجب إعطاؤه الاهتمام الكافي حتى يعود لهذه الأمة إبداعها وتقدمها.

4-بما أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية أغلب أحكامها معللة وموضحة المقاصد، وقد بينها العلماء المجتهدون ؛ لذا جاءت هذه الدراسة إسهاماً في إبراز الاحتلاق في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

5-إن العقل سبيل الإدراك والتمييز والتمحيص فهو وسيلة الإنسان إلى إدراك فحوى الوحي ووضعه موضع الإرشاد والتوجيه لعمل الإنسان وبناء الحياة ونظمها وإنجازاتها بما يحقق غاية الوحي ومقاصده.

6-إن استعمال الإنسان لعقله استعمالاً صحيحاً يجعله يفهم الآيات والأحاديث على وجهها الصحيح، وإذا كان كافراً فإن الله تعالى جعل في دينه من الحجج والبراهين ما لا يخفى على عاقل، لكن من لم يستخدم عقله لم ينتفع بهذه الحجج والبراهين سيندم وسيتمنى لو أنه استخدم عقله على الوجه الصحيح

أهداف الدراسة:

تتمثل أهداف الدراسة في تحقيق الأمور الآتية:

1-التعرف على مفهوم العقل في اللغة والاصطلاح

2-التعرف على مكانة العقل وأهميته في الشريعة الإسلامية

3- بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

الدراسات السابقة وموقع الدراسة الحالية منها:

تناول الباحثون في أبحاثهم ودراستهم جوانب متعددة من العقل ومفهومه وأهميته ودوره، إلا أنهم لم يفصلوا القول في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية، ومن هذه الدراسات السابقة التي تتعلق بجزئيات هذه الدراسة:

1- مجدالوي، محمد رضوان خليل، (2000م)**العقل ووسائل الحفاظ عليه في ضوء مقاصد الشريعة**، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والقانون، السودان: جامعة أم درمان الإسلامية، واتفقت مع دراستي في بيان مفهوم العقل وأهميته ومنزلته، واختلفت معدراستي في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

2- جمال الدين محمد عطية(2002م) **تكامل طرق معرفة المقاصد: مقصد اعتبار العقل نموذجا**،بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر، عدد 106 الجزء 27، حيث اتفق هذا البحث مع دارستي في بيان مفهوم العقل وأهميته، واختلفمع دراستي في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

3-أبو عبيدة،نافذ ذيب قاسم(2011م) **التدابير الشرعية الوقائية لحفظ العقل**، رسالة ماجستير في الفقه والتشريع في كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية في نابلس في فلسطين،اتفقتمع دراستي في بيان مفهوم العقل وأهميته ومنزلته، واختلفت مع دراستي في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

4-عبد العزيز عبد المولى علي (2023م) **تحكيم الشريعة الإسلامية بين النظرية والتطبيق**،بحث منشور في مجلة القرطاس، مجلة علمية محكمة، الجمعية الليبية لعلوم التربية، العدد الثاني والعشرون الجزء الثاني، اتفق مع دراستي في بيان مفهوم تحكيم الشريعة، واختلف مع دراستي في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

5-الربابعة، عبد الله (2016م) **العقل ومكانته في الكتاب والسنة**، بحث منشور على موقع دائرة الإفتاء الأردنية الالكتروني https://www.aliftaa.jo

اتفق مع دراستي في بيان مفهوم العقل ومكانته، واختلف مع دراستي في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

6-سمير مثنى علي الأبارة(2016م) مكانة العقل ودوره في الإسلام،بحث منشور على موقع الالوكة https://www.alukah.net حيث اتفق مع دراستي في بيان مكانة العقل في الإسلام، واختلف مع دراستي في بيان الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

منهجية البحث وخطته

اعتمدت في دراستي هذه على المنهج الاستقرائي من خلال استقراء ما تم بحثه سابقا في موضوع مكانة العقل، وما لم يتم بحثه وتناوله في مجال تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية، ثم من خلال الدراسات السابقة تم اتباع المنهج التحليلي بتحليل ما تم ابرازه في الدراسات السابقة، واستنتاج الأمور المشتركة بين الأديان السماوية والشرائع

الوضعية في هذه الجزئية من هذه الدراسة المتعلقة بالاختلاف في تحكيم العقل بين الأديانالسماوية والشرائع الوضعية، وقد اشتمل البحث على مقدمة تم من خلال بيان مشكلة الدراسة وأهميتها وأهدافها وأسئلتها والدراسات السابقة ومنهجية الدراسة وهيكليتها، وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المفاهيم المتعلقة بالدراسة

المطلب الأول: مفهوم العقل في اللغة

المطلب الثاني: مفهوم العقل الاصطلاح

المطلب الثالث: مفهوم الشرائع السماوية والشرائع الوضعية

المبحث الثاني: مكانة العقل في الشريعة الإسلامية

المبحث الثالث: الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

وخاتمة: اشتملت على أهم النتائج والتوصيات .

المبحث الأول:

المفاهيم المتعلقة بالدراسة

المطلب الأول: مفهوم العقل في اللغة

جاء في لسان العرب: " العقل: مصدر عَقَلَ يَعقِلُ عَقْلاً ومَعْقولاً، والعقل: الحجر والنهى، وهو ضد الحمق، والجمع عقول"، ورجل عاقل " وهو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه " [2]

والعقل هو: " العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشر الشرين، أو مطلق الأمور، والحق أنه نور روحاني، وبه تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية[3]

وذكر ابن فارس أن العقل هو:" أن العين والقاف والالم أصل واحد منقاس مطرد يدل عظمه على حبسه في الشيء أو ما يقارب الحبسة " [4]

أن العقل في اللغة يطلق على الحبس والمنع، وما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها، ومنه الإنسان حيوان عاقل، وما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات، وما به يتميز الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل[5]

المطلب الثاني: مفهوم العقل الاصطلاح

عرف الحارث المحاسبي العقل بأنه: " غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه، لم يطلع عليها العباد بعضهم مع بعض، ولا أطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ولا بحس، ولا بذوق ولا طعم،

وإنما عرفهم الله إياها – يعني غريزة العقل"[6]

وعرفه عباس محمود العقاد بأنه: "العقل في مدلوله العام ملكة يناطبها الوازع الأخلاقي أو المنع من المحظور والمنكر "[7]

وعرفه الماوردي:" ما له حد يتعلق به التكليف، لا يجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان " [8]

ونقل الجرجاني عدة تعريفات، منهاأن: " العقل جوهر روحاني خلقه االله تعالى متعلقاً ببدن الإنسانوقيل العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل وقيل: العقل: جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الفاىات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة" [9]

وعرف ابن تيمية العقل بأنه:" شرط في معرفة العلوم وكمال الأعمال وبه يكمل العلم لكنه ليس مستقلاً بذلك لكنه غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الايمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنور" [10]

عرف ابن قيم الجوزية العقل بأنه:" عقلان عقل غريزة، وهو أبو العلم ومربيه ومثمره وعقله مكتسب مستفاد، وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعتا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحداهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما " [11]

وأجمع ما قيل في معنى العقل قول الغزالي بعدم الطمع في حده بحد واحد يحيط به؛ لأنه اسم مشترك يطلق على عدة معان:[12]

أحدها: إطلاقه على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية وتدبير الأمور الخفية .والثاني: إطلاقه على بعض الأمور الضرورية. وهي التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات

والثالث: إطلاقه على العلوم المستفادة من التجربة، فإن من حنكته التجارب يقال عنه أنه عاقل من لا يتصف بذلك يقال عنه غبي جاهل

والرابع: إطلاقه على ما يوصل إلى ثمرة معرفة عواقب الأمور، بقمع الشهوات الداعية إلى اللذات العاجلة التي تعقبها الندامة، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً

والخامس: إطلاقه على الهدوء والوقار، وهي هيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه. فيقال: فلان عاقل، أي عنده هدوء ورزانة

وخلص الدكتور محمد نعيم ياسين إلى القول بأنّ القول الراجح هو أنّ العقل: "أحد غرائز النفس أو قوّة من قواها، تمكنها من إدراك المعاني والحقائق وفهم الخطاب " [13]

ويرى الباحث أن هذا التعريف للعقل هو التعريف الراجح بين التعريفات السابقة كونه اعتمد على الادراك والفهم وهذه وظائف العقل السليم

المطلب الثالث: مفهوم الأديان السماوية والشرائع الوضعية

تُعرّف الأديان السّماوية على أنّها الأديان التي مصدرها من الله –تعالى–؛ أي أنّ تشريعاتها أُنزلت من الله – تعالى [14] وهي ثلاثة أديان؛ الدّيانة اليهوديّة التي أنزل الله –تعالى– تشريعاتها في التوراة المُنزلة على موسى –عليه السلام–،

والنَّصرانيَّة التي أنزل الله –تعالى– تشريعاتها في الإنجيل المُنزل على عيسى –عليه السلام–،والإسلام الذي أنزل الله –تعالى– تشريعاته في القرآن الكريم على محمد –صلى الله عليه وسلم–.

والأديان ستة واحد للرحمن وخمسة للشيطان والتي للشيطان هي اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة والمشركون والتي للرحمن هي شريعة الاسلام [15]، ومن هذه الديانات ما هي سماوية وهي اليهودية والنصرانية والاسلام، وأما الوضعية فهي كالمجوسية والمجوسية والشرك وغيرها من الديانات الحديثة كالبهائية والطبعية وغيرها [16]

ومن الجدير بالذِّكر أنّ الدين الإسلامي آخِر الأديان، وقد جاء ليكمِّل ما سبقه من الأديان تكميلاً مهيمناً وناسخاً؛ إذ إنّ القرآن الكريم نزل مصدِّقاً لما سَبَق من الكتب السّماويّة، فقد قال الله –تعالى–: " إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ"(المائدة: آية 44)

مما لا شك فيه أن العلاقة بين الدين الإسلامي والأديان السماوية علاقة تكاملية، أي أن كل رسالة سماوية جاءت مصدقة للتي قبلها ومتممة لها، وإنها مجتمعة تمثل كياناً واحداً، كما تمثل الرسالات السماوية كلها مجتمعة ديناً واحداً أي أن الأصول الإيمانية واحدة، كما أن القيم والأخلاق تكاد تكون متطابقة، ولا يعني هذا أن تكون كل رسالة صورة طبق الأصل عن غيرها وإلا لانتفى مبرر وجودها، ولأن الرسالات السماوية تتفاوت أحكامها تبعاً لتفاوت الأزمنة ولأن الأديان تتناسب مع تطور الإنسان وترقيه وتتكيف مع الزمان والإنسان والمكان

ويرى الباحث أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الشرائع لزم أن تكون كاملة ليس فيها نقص، وتامة لا تقبل الزيادة، وكمال الشريعة وتمامها يعني أنها ينبغي أن تستوعب كل مستجدات الحياة عبر القواعد الشرعية ومصادر التشريع التي لا تتوقف عند الأصلين الأساسيين: القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة

ويختلف الدين الإسلامي عن القوانين الوضعية اختلافاً أساسياً من ثلاثة وجوه:[17]

الوجه الأول: أن القانون من صنع البشر، أما الشريعة فمن عند الله، وكلٌّ من الشريعة والقانون يتمثل فيه بجلاء صفات صانعه، فالقانون من صنع البشر، ويتمثل فيه نقص البشر، وعجزهم، وضعفهم، وقلة حيلتهم، ومن ثمَّ كان القانون عرضة للتغيير والتبديل، أو ما نسميه التطور، كلما تطورت الجماعة إلى درجة لم تكن متوقعة، أو وجدت حالات لم تكن منتظرة. فالقانون ناقص دائماً ولا يمكن أن يبلغ حد الكمال ما دام صانعه لا يمكن أن يوصف بالكمال، ولا يستطيع أن يحيط بما سيكون وإن استطاع الإلمام بما كان. أما الشريعة: فصانعها هو الله، وتتمثل فيها قدرة الخالق وكماله، وعظمته، وإحاطته بما كان وما هو كائن؛ ومن ثمَّ صاغها العليم الخبير بحيث تحيط بكل شيء في الحال والاستقبال، حيث أحاط علمه بكل شيء، وأمر جل شأنه أن لا تغير ولا تبدل حيث قال: {لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ} [يونس: 64] ؛ لأنها ليست في حاجة للتغيير والتبديل مهما تغيرت الأوطان، والأزمان، وتطور الإنسان.

الوجه الثاني: أن القانون عبارة عن قواعد مؤقتة تضعها الجماعة لتنظيم شؤونها، وسد حاجاتها. فهي قواعد متأخرة عن الجماعة، أو هي في مستوى الجماعة اليوم، ومتخلفة عن الجماعة غداً؛ لأن القوانين لا تتغير بسرعة تطور الجماعة، وهي قواعد مؤقتة تتفق مع حال الجماعة المؤقتة، وتستوجب التغير كلما تغيرت حال الجماعة. أما الشريعة فقواعد

وضعها الله تعالى على سبيل الدوام لتنظيم شؤون الجماعة، فالشريعة تتفق مع القانون في أن كليهما وضع لتنظيم الجماعة. ولكن الشريعة تختلف عن القانون في أن قواعدها دائمة ولا تقبل التغيير والتبديل. وهذه الميزة التي تتميز بها الشريعة تقتضي من الوجهة المنطقية:

أولاً: أن تكون قواعد الشريعة ونصوصها من المرونة والعموم بحيث تتسع لحاجات الجماعة مهما طالت الأزمان، وتطورت الجماعة، وتعددت الحاجات وتنوعت.

ثانياً: أن تكون قواعد الشريعة ونصوصها من السمو والارتفاع بحيث لا يمكن أن تتأخر في وقت أو عصر ما عن مستوى الجماعة.

والواقع أن ما يقتضيه المنطق متوفر بوجهيه في الشريعة، بل هو أهم ما يميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع السماوية، والوضعية، فقواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها جاءت عامة، ومرنة إلى آخر حدود العموم والمرونة، كما أنها وصلت من السمو درجة لا يتصور بعدها سمو.

الوجه الثالث: أن الجماعة هي التي تصنع القانون، وتلونه بعاداتها وتقاليدها وتاريخها، والأصل في القانون أنه يوضع لتنظيم شؤون الجماعة، ولا يوضع لتوجيه الجماعة، ومن ثم كان القانون متأخراً عن الجماعة وتابعاً لتطورها، وكان القانون من صنع الجماعة، ولم تكن الجماعة من صنع القانون. وإذا كان هذا هو الأصل في القانون من يوم وجوده، فإن هذا الأصل قد تعدل في القرن الحالي، وعلى وجه التحديد بعد الحرب العظمى الأولى، حيث بدأت الدول التي تدعو لدعوات جديدة، أو أنظمة جديدة، تستخدم القانون لتوجيه الشعوب وجهات معينة، كما تستخدمه لتنفيذ أغراض معينة، أما الشريعة الإسلامية فقد علمنا أنها ليست من صنع الجماعة، وأنها لم تكن نتيجة لتطور الجماعة وتفاعلها كما هو الحال في القانون الوضعي، وإنما هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه. وإذا لم تكن الشريعة من صنع الجماعة، فإن الجماعة نفسها من صنع الشريعة.

إذن الأصل في الشريعة أنها لم توضع لتنظيم شؤون الجماعة فقط، كما كان الغرض من القانون الوضعي، وإنما المقصود من الشريعة قبل كل شيء هو خلق الأفراد الصالحين والجماعة الصالحة، وإيجاد الدولة المثالية، والعالم المثالي، ومن أجل هذا جاءت نصوصها أرفع من مستوى العالم كله وقت نزولها، ولا تزال كذلك حتى اليوم، وجاء فيها من المبادئ، والنظريات ما لم يتهيأ العالم غير الإسلامي لمعرفته والوصول إليه إلا بعد قرون طويلة، وما لم يتهيأ هذا العالم لمعرفته أو يصل إليه حتى الآن

المبحث الثاني: مكانة العقل في الشريعة الإسلامية

يعتبر العقل من أفضل نعم الله تعالى على الإنسان فقد كرمه الله تعالى بالعقل وميزه من خلاله عن بقية المخلوقات قال تعالى:" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " (الإسراء: آية 70)، حيث أولت الشريعة الإسلامية العقل كثيراً من العناية والاهتمام، حيث أنها أمرت بالتثبت قبل نشر المعلومات للناس، حيث قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين " (الحجرات: آية 6)

ومما يدل على مكانة العقل في الشريعة الإسلامية أن الله تعالى جعل التفكر والتدبر في مخلوقاته عبادة من أعظم العبادات وأجلها، يقول تعالى:" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " (آل عمران: آية 190–191)، وجه الدلالة من الآية: يقول الإمام ابن كثير: "ومعنى الآية أنــّه يقول تعالى: "إنّ في خلق السموات والأرض"، أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيّارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار، وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوموالروائح والخواص"واختلاف الليل والنهار"، أي: تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم، ولهذا قال: "لآيات لأولي الألباب"، أي: العقول التامّة الذكيّة التي تدرك الأشياء بحقائقها على جليّاتها، وليسوا كالصمّ البكم الذين لا يعقلون "[18]

وفي هذا يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في بيان منزلة العقل ومكانته في كتاب الله: " والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يُلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه»[19]

وقد امتدح الإسلام العلماء المفكرون، الذين يستعملون عقولهم فيما ينفهم. وجعلهم في مكانة قيمة، ويتجلى ذلك في اقتران شهادتهم ُ بالتوحيد مع شهادة الله والملائكة المكرمين. قال تعالى:"شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (آل عمران: آية 18) وذم الإسلام تعطيل العقول والتقليد الأعمى واتباع الآباءوالأجداد دون إعمال للعقول قال تعالى:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ،وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " (البقرة: آية 170–171) وذم العلماء الطوائف التي تعطل العقل كغالة الصوفية حيث قال ابن تيمية عنهم: " وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة، لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بمايكذب به صريح العقل "[20]

ومما يبين لنا اهتمام الإسلام بالعقل أن الإسلام خاطبه وحاوره وناقشه بالحجة والبرهان، والمنطق السليم. قال تعالى:" مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ " (المؤمنون: آية 91) حيث جعله الله تعالى وسيلة لإقامة الحجة والبرهان على الكافرين والمشركين .

وجعلت الشريعة الإسلامية حفظ العقل من الضرورات الخمس التي يستغني الناس عنها في أي حال من الأحوال، يقول الإمام الشاطبي :" فأما الضرورية فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فسادوتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين " [21]

وقد كرمت الشريعة الإسلامية العقل واعلت من شأنه حيث أنه مناط التكليف والمسؤولية وغيرالعاقل ليس بمكلف[22]، وهي قاعدة ثابتة في الشريعة الإسلامية، كما قال ابن تيميه: " والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره. فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس، ولا بين أيام الأسبوع، ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل، أما من فهم الكلام وميز ما ينفعه وما يضره فهو عاقل " [23]

فلا يتوجَّه الخطاب الشرعي إلا للعقلاء من البشر، بينما يسقط التكليف وترتفع المسؤولية عن فاقدي هذه النعمة الإلهية والجوهرة الثمينة، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق" [24]

ولقد أحل القرآن العقل منزلاً سامياً وجعله نوراً يهدي به الناس، وطالبهم باستعماله والتحاكم إليه وسماه نوراً في قوله تعالى " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (النور: آية 35)

ولا شك أن معظم آيات القرآن الكريم تحض على التفكير واتباع العقل، وعلى تميّز أصحاب العقول المفكرة عن غيرهم كقوله تعالى: "لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها" (الأعراف: آية 175)، وقوله: " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" (الملك: آية 10)، وقوله تعالى: "إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون" (الأنفال: آية 22)، وقوله تعالى:" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" (المجادلة: آية 11)، وقد تكرر قوله تعالى: "لعلكم تعقلون" في آيات كثيرة وفي أماكن مختلفة، غايتها حضّ المؤمنين على تفعيل العقل وتطوير قدراته عن طريق العلم والمعرفة،وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إلى العقل نظرة تعظيم وإجلال.

المبحث الثالث: الاختلاف في تحكيم العقل بين الأديانالسماوية والشرائع الوضعية

لا شك أن الاختلاف في تحكيم العقل بين الشرائع السماوية والشرائع الوضعية يظهر جلياً في الشرائع السماوية التي مصدرها واحد،، بل إن الشرائع السماوية التي دخلها التحريف والتبديل والتغيير اختلفت عن الشريعة الاسلامية في تحكيم العقل بشكل كلي حيث ذكر الله تعالى في القران الكريم بعض ما أنعم به على الإنسان من النعم العظيمة التي لا تُعد ولا تحصى، وجعل اجل هذه النعم واعظمها هي العقلالذي يميز به بين الأشياء ويهتدي من خلاله إلى وجود االله، وسخر له الكون، وما فيه من أجل القيام بالوظيفة التي خلقه من أجلهـــا وهي العبادة والاستخلاف في الأرض، وزوده بـــالعلوم الضرورية لتحقيقها، كما حرره من عبودية غير الله، وجعله مخيراً في سلوكه الذي يسلكه في حياته، وغيرها من النعم التي لا يمكن حصرها، وفتح باب الاجتهاد له، ورفض الإسلام الحجر على العقول، وفتح له الاجتهاد من أجل إيجاد الحلـــول لأيـــة مشـــكلة ومستجدات عصرية، وهذا يدل على مرونة الشريعة الإسلامية، واهتمام الإسلام بالعقل وأصحاب العقول السليمة .

وقد كرم الله تعالى العقل بأن حدد له مجالات يخوض فيها حتى لا ينحرف ويزيغ ولا يضل، لذلك كان التفاضل بين الناس في عقولهم، فكان للعقل أن يخوض في العلوم والمعارف النظرية كالطب والرياضيات والصناعات وغيرها من العلوم، ونهى الإسلام عن كل ما يزيل ويحجب ويعطل العقول فحرم الكهانة والعرافة والشعوذة وادعاء معرفة الغيب، كما نهى عن التطير والتشاؤم بأي من المخلوقات، وحرم السحر لما فيه من ضرر عظيم وشر مستطير، ونهى عن التقليد الأعمى والإمعية بغير علم ولا هدى لما فيها من قتل للمواهب والإبداع، وأوصى بالبعد عن الغضب والتسرع اللذين يورثان الندم، ودعا إلى اجتناب الظن السيء الذي يناقض العقل وينافي العلم، ونهى عن اتباع الأهواء والشهوات؛ لما فيها من فساد في الأحكام، وحرص الإسلام على تنمية العقل وتغذيته التغذية المناسبة؛ فوضع المنهج العلمي الصحيح للنظر العقلي القائم على التثبت في كل أمر قبل الاعتقاد به، وأمر بتدبر نواميس الكون، ووجه العقل إلى النظر في سنة الله في الأرض وأحوال الأمم السابقة، وحث على تنمية العقل من خلال الدعوة إلى طلب العلم الذي أمرنا به الله تعالى، ورفع من قيمة العلماء وأعلى منزلتهم، وكرمهم وفضلهم على غيرهم، وجعلهم ورثة الأنبياء في تبليغ دعوة الله تعالى، ونشر دينه، وتعليم الناس، وإرشادهم للخير، وبالتالي تحكيم العقل في المسائل المستجدة لبيان الحكم الشرعي المناسب لها [25]

وعليه يرى الباحث أن الأديان السماوية قبل تحريفها نظمت أمور تحكيم العقل في النصوص وفق الضوابط والقيود الشرعية، ففتحت باب الاجتهاد له، ولم تعرقل سيره بل دعت العقل إلى وجوب التدبر والتفكر والتأمل فيما يعرض من مسائل لاستنباط الحكم الشرعي المناسب.

ولقد حثّ القرآنُ الإنسانَ على إعمال عقله، ودعاه إلى نبذ الجمود والتقليد، وبيّن أنّ من يغفل نعمة العقل فلا يستخدمها، فإنه ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان، قال تعالى: " إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (الأنفال: آية 22)، وقوله تعالى:"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف: آية 179)

وأكد على أنّ تعطيل العقل مفضٍ بصاحبه إلى النار، قال تعالى: " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ " (الملك: آية 10).

وأما الشرائع الوضعية فقد تركت العنان للعقل بما يحكمه من هوى وشبهات ولم تضع القيوم والقوانين والقواعد الناظمة لتحكيم العقل في مسائل العصر المستجدة التي تبنى على الاجتهاد، ففتحت باب الاجتهاد على مصراعيه دون تحديد لضوابط الحكم الشرعي المبني على الاجتهاد.

ولا شك أن الأحكام الشرعية إنما شرعت لتحقيق مصالح الناس ؛ لجلب النفع لهم، أو دفع الضرر عنهم، فإذا كانت الواقعة المراد تحكيم العقل فيها في الأديان السماوية فيها حكم شرعي بنص أو إجماع، فلا بد من تحكيم العقل وفق هذا المنهج، بالضوابط الشرعية المحددة، ولكن مع تجدد الوقائع والحوادث وتغير البيئات فقد تطرأ على الأمة وقائع وأحداث لم تكن معروفة من قبل، وبما أن المصالح التي بينت عليها الأديان السماوية أحكامها الشرعية معقولة، وبالتالي فإن العقل يدرك حسن ما طالب به الشرع، ويدرك قبح ما نهى عنه، فإن الله تعالى أوجب علينا ما تدرك عقولنا نفعه، وحرم

علينا ما تدرك عقولنا ضرره، فإذا حدثت واقعة لا حكم للشرع فيها، فيبني الإنسان حكمه عليها وفق عقله السليم ؛ نظراً لما يدركه عقله من نفع فيها أو ضرر، حيث إن الصحابة رضوان الله عليهم حدثت في حياتهم حوادث لم تكن موجودة من قبل، فبنوا الأحكام الشرعية وفق عقولهم السليمة التي تدرك النفع والضرر ومعاييرهما كجمع القرآن وحرب الردة وقتل الجماعة بالواحد وغيرها من الأحكام، وفي هذا الصدد يقول العز بن عبد السلام:" إن معظم مصالح الدنيا ومفاسدها معروفة بالعقل، وذلك في معظم الشرائع ؛ إذ لا يخفى على كل عاقل قبل ورود الشرع أن تحصيل المصالح ودرء المفاسد عن الإنسان، أو عن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن، واتفق العقلاء، وكذلك الشرائع على تحريم الدماء والابضاع والأموال والأعراض، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقوال والأعمال، فمصالح الدنيا معروفة بالضرورات والتجارب والظنون، فمن أراد أن يعرف المناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوحها فليعرض ذلك على عقله ليتدبرها " [26]

ويؤكد ابن تيمية على ذلك فيقول:" والقول الجامع: أن الشريعة لا تهم لمصلحة قط، بل االله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنةإلا حدثنا به النبي – صلى االله عليه وسلم –، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغعنها بعده إلا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد بها فأحد أمرين لازم له:

إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر،أو أنه ليس بمصلحة وإن اعتقده مصلحة؛ لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيرا ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة، كما قال تعالى:" الْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا " (البقرة: آية 219)، وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك، حسبوه منفعة، أو مصلحة نافعا وحقا وصوابا وليس كذلك، فإذا كانالإنسان يرى حسنا ما هو سيئ كان استحسانه، أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب"[27]

ويقول الشاطبي مبيناً هدف الشريعة السامي في اخراج الناس من دواعي الهوى والضلال:" إن الشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين عن دواعي أهوائهم حتى يكونوا عبادا الله، وهذا المعنى إذا ثبت لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة علىوفق أهواء النفوس وطلب منافعها العاجلة " [28]

ويرى الباحث أن تحكيم العقل في الشرائع الوضعيةلا يحكمه شرع ولا نظام ولا قواعد ولا ضوابط، فالعقل ينقاد إلى الأهواء والشهوات، ويتأثر بالشبهات، وفي هذا الصدد يقول الشاطبي:" إنالأدلة الراجعة إلى العقل، لا تستقل بالدلالة في أصول الفقه، فلا يجوز أن يعتمد على حكم العقل لإثبات حكم شرعي، بل أن المعتمد عليه في إثبات الأحكام الشرعية هو النقل، والعقل معين في طريق النقل: الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم، فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو معينة فيطريقها، أو محققة لمناطها، أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة؛لأن النظر فيها نظر في أمر شرعي، والعقل ليس بشارع، فإذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية، فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعاً، ويتأخر العقل فيكون تابعاً، يسرح العقل في مجال النظر إلا قدر ما يسرحه النقل " [29]

فالعقل والوحي متلازمان ولكل دوره الذي يخوض فيه والعقلفي الأديان السماوية التي لم يدخلهاالتحريف كالإسلام فهو لا يتعارض مع الوحي، فإن تعارضا فإما أن يرد حكم العقل إذا كان النص لا يحتمل التأويل، أو أن يصار إلى

التأويل، وفي ذلك يقول ابن تيمية:" إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية والظواهر النقلية والقواطع العقلية، فإما أن يجمع بينهما وهو محال ؛ لأن العقل أصل النقل، فلو قدمنا السمع على العقل الذي هو أصل النقل فهذا قدح فيه، والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، ثم إما أن يُتأوّل وإما أن يفوض " [30]

ولقد وجّهنا الله تعالى إلى استخدام العقل وتحكيمه من خلال الحثّ على التأمّل والتفكّر والتدبّر والنظر في السموات والأرض وما فيهما، قال تعالى: "قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ" (يونس: آية 101)، وقال تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج: آية 46.)

ويرى الباحث أن العقل تختلف تقديراته ومقاييسه وقوته وضعفه، وأن العلم مهما اتسعت آفاقه فلا يمكن أن يخرج في مهمته عن عالم الشهادة ولا أن يتجاوز هذا الكون الفسيح بما فيه من مجال واسع للعلم والعمل، فلا يستطيع العقل أن يرشدنا إلى ما فيه رضى لله تعالى، وما فيه من سخط له ولا ما فيه من خير وسعادة للناس، وما فيه من شر وشقاوة للناس ؛ لذا فلا بد من مراعاة سير العقل على المنهج المستقيم في تحكميه في الشرائع الوضعية وعدم ترك الأمور على غالبها له، حتى لا يخالف منهجه الذي وجد من أجله، فالعقل هو للتدبر والتفكير والتأمل والبحث وليس للهوى والضلال، فالشرائع الوضعية أرادت العقل أن يسير على خلاف ما هو عليه في الأصل في الشرائع السماوية، التي كرمت العقل وجعلته أداة للأهلية، والتكليف، بخلاف القوانين الوضعية التي جعلت العقل هو الحكم والفيصل في كل أمورها، والعقل كما نعلم قد تعتريه أحوال فتؤثر عليه، وبالتالي تؤثر فيه فيكون حكمه مشوباً ببعض التأثيرات ؛ لذا فوجب إعمال العقل بما شرع الله، وبما جعل العقل به مداراً للتكريم والتفضيل

وأما بالنسبة لأثر تحكيم العقل عند (الديانات السماوية المحرفة) اليهودية أنموذجا .

1–بدات اليهودية على التوحيد وكان هذا الأصلاليهود من حيث الأصل كتابيون موحدين، غير أنهم اتجهوا إلى التعدد والتجسيم والنفعية فكثر أنبياؤهم، وقد عبدوا العجل وقدسوا الأفعى، وقد تأكد أن التوراة ألفت في عصور مختلفة وبأقلام مختلفة، ولذا فإن كثيراً من نصوصها تعارض الحقائق العلمية المعاصرة، كما يعارض بعضها بعضاً. [31]

2–ثم لما حكموا العقل وألغوا نصوص الوحي ظهرت لديه المعتقدات التي تخالف العقل والنقل ومنها أنهم اتجهوا إلى التعدد والتجسيم والنفعية، مما أدى إلى كثرة الأنبياء فيهم لردهم إلى جادة التوحيد كلما أصابهم انحراف في مفهوم الألوهية، وقد اتخذوا العجل معبوداً له بُعَيْد خروجهم من مصروهذا من أكبر الشواهد على تحكيم العقل .

3–أما الإله لديهم سموه يهوه وهو ليس إلهاً معصوماً بل يخطئ ويثور ويقع في الندم وهو يأمر بالسرقة، وهو قاس، متعصب، مدمر لشعبه، إنه إلهبني إسرائيل فقط وهو بهذا عدو للآخرين،ويزعمون أنه يسير أمام جماعة من بني إسرائيل في عمود من سحاب، ولم يرد في دينهم شيء ذو بال عن البعث والخلود والثواب والعقاب إلا إشارات بسيطة وذلك أن هذه الأمور بعيدة عن تركيبة الفكر اليهودي المادي[32]

4–وفي جانب الثواب والعقاب فهو عندهم إنما يتم في الدنيا، فالثواب هو النصر والتأييد، والعقاب هو الخسران والذل والاستعباد.

5- وقد حجروا واسعاً في استعمال العقل والفكر فقصروه على فئة منهم فهم وحدهم لهم حق تفسير النصوص وتقديم القرابين، وهم معفون من الضرائب وشخصياتهم وسيلة يتقرب بها إلى الله، فأصبحوا بذلك أقوى من الملوك [33]

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

1-لقد أعطى الإسلام العقل أهمية كبرى عندما جعله شرطاً للتكاليف الشرعية والتمييز بين النفع والضرر في التصرفات القولية والفعلية، وبالتالي المحاسبة على هذه التصرفات وترتب المسؤولية المدنية والقانونية في حال التقصير في العمل، وعدم الأخذ بالاحتياطات اللازمة للسلامة، ودفع الضرر الواقع أو المتوقع عن الناس

2-في العقل تتحقق صفة الثناء والمدح للإنسان في حال السير وفق المنهج المستقيم، والذم في حال تعطيل العقل عن وظيفته التي وجد من أجلها، وفي هذا يقول تعالى:" وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ"(الملك: آية 10)

3-الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي كرم العقل ومنحه مكانته وقيمته، ويدلل على ذلك كثرة الآيات الدالة على وجوب التفكير والتدبر وإعمال العقل، وتحكميه في شؤون الحياة وقضاياها المستجدة بالاجتهاد في القضايا التي لا نص فيها من القرآن والسنة والاجماع

4-العقل لا يهتدي إلى الصواب إلا من خلال قواعد الشريعة الإسلامية، والشرع لا يظهر ولا يستبين إلا بالعقل السليم، وكلاهما لله تعالى فلا بد للعقل أن يتبع ويسير على الشرع الحكيم

5-الإسلام أعطى العقل حريته لكنها هذه الحرية مقيدة ومنضبطة بأحكام وقواعد الشرع ومقاصده

6- لا يحكم العقل في المسائل الإلهية في النفي والإثبات إلا من خلال ما ورد في النبوات وعن الأنبياء، وقد جعل الإسلام للعقل دوره ووظيفته في المسائل الاعتقادية دون الخروج عن فهم معناها ومضمونها والمراد بتبليغها للناس

7-الإسلام لم يحجر على العقل وجعل له سلطة ومجال من خلاله يستطيع العقل الابداع، وتحقيق وظيفته في الحكم على الأشياء، والتمييز بين ضررها ونفعها والدائر بينهما، وبالتالي الاختيار المناسب للعمل

8-العقول السليمة ترى ما جاء من عند الله عن طريق الرسل وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق الموافق للعقل والحكمة، والعقول المريضة التي تأثرت بالشبهات والأهواء ترى التعارض بين العقول وما نزل به الحق

9-الاعتماد على العقل وحدة دون التدبر والاستعانة بالوسائل القطعية المستمدة من الشريعة الإسلامية يؤدي في بعض الأحيان إلى الانحراف والضلال والابتداع، فلا بد من تحكيم العقل إلى ما يؤدي إلى الحق، والبعد عن الهوى والضلال والافساد في الأرض

10-للعقل دور كبير في حماية المجتمع من البدع والخرافات وذلك لأن جميع هذه الأمور متناقضة مع التفكير الصحيح والعقل المستنير، وللعقل دور كبير في التميز للمجتمع المسلم وذلك من خلال دور العقل في محاربة التقليد الأعمى

11-كرم الله تعالى العقل بأن حدد له مجالات يخوض فيها حتى لا ينحرف ويزيغ ولا يضل، لذلك كان التفاضل بين الناس في عقولهم، فكان للعقل أن يخوض في العلوم والمعارف النظرية.

12–العقل نعمة عظيمة من نعم الله تعالى التي أنعم بها على الإنسان؛ إذ من خلاله يتعرّف الإنسان على أسرار خلق الله تعالى وعظيم صنعه، وبه يتوصّل إلى تصديق الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى لهدايته وسعادته، وذلك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبيّن إلا بالعقل، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء.

13–للعقل مكانة سامية في دين الله تعالى، ومنزلة رفيعة، ومع ذلك فإنّ له حدوداً لا يجوز تخطيها أو تجاوزها، فهو في حاجة دائمة للشرع، لأنه تابع له، ومن شأن الشرع أن يعصمه.

التوصيات:

خلصت الدراسة إلى التوصيات التالية:

1–ضرورة العمل على دراسة المسائل المتعلقة ببيان الاختلاف بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

2–ضرورة السعي إلى عقد المؤتمرات والندوات العلمية والدورات المتخصصة التي تخاطب العقول، والتي تركز على التوعية المجتمعية بخطورة أفكار الجماعات المنحرفة ومناقشتها وردها بالحجة والبرهان، وتركز على دراسة الاختلاف بين الأديان السماوية والشرائع الوضعية

3–ضرورة تطوير وتحديث مناهج الثقافة الإسلامية في الجامعات والمدارس ؛ لما لها من دور كبير في نشر الثقافة الدينية بين الشباب الجامعي، ولمساهمتها في تنمية عقولهم وفكرهم، ولا بد من اعتماد مساق الثقافة الإسلامية مساقاً إجبارياً على جميع الطالب المادة وفي جميع الجامعات والكليات الحكومية والخاصة

4–ضرورة تعزيز دور كليات الشريعة في تبني الفكر الوسطي، وبيان الاقوال الشاذة والمرجوحة التي تتعارض مع منهج الوسطية، والتي تعتمد عليها الجماعات الضالة المنحرفة عن الفكر الإسلامي

5–ضرورة العمل على التنويع في استراتيجيات التدريس والابتعاد عن أسلوب التلقين؛ لما لهذا الأسلوب من تأثير وتعطيل للملكات العقلية والذهنية لدى الطلبة

Abstract

The Differences in the Application of Reason Between Divine Religions and Secular Laws

By Akaab Diab Yassin

This study addresses a topic of significant interest and relevance in the present age: the differences in the application of reason between divine religions and secular laws. The research aims to:(Highlight the differences in the application of reason between divine religions and secular laws, Emphasize that by applying reason, the intellect is preserved, which is one of the five necessities that Islamic law mandates to protect, as it is the basis of accountability).By doing so, individuals can understand the matters that impair or obstruct the intellect, which all divine religions have prohibited. The importance of the research lies in:(Clarifying the status of reason in Islamic law, Explaining the differences in the application of reason between divine religions and secular laws).

The researcher in this study followed the inductive method by surveying previous research on the subject of the status of reason in Islam, and identifying what has not been explored regarding the application of reason between divine religions and secular laws. Then, through these previous studies, the analytical method was applied by analyzing the findings of these studies and deducing the common aspects between divine religions and secular laws in this particular area of the study, which relates to the differences in the application of reason between divine religions and secular laws.

The study concluded that relying solely on reason without contemplation and the use of definitive means derived from divine laws often leads to deviation, misguidance, and innovation. Therefore, it is essential to apply reason in a way that leads to truth and to avoid whims, misguidance, and deviant ideas.

Keywords: Reason, Religions, Divine, Secular, Application.

الهوامش

(1) الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد، **الموافقات في أصول الشريعة**، دار ابن عفان، ط1، 1997م، ج4/ص106

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط4، 2005م، مادة عقل، ج11/ص458

(3) الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 2005م، مادة عقل،ج1/ص1336

(4) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، دار الفكر، بيروت، ط2، 1979م، مادة عقل،ج4/ص69

(5) إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار: **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، مصر، ج2/ص617

(6) المحاسبي: الحارث بن أسد، **ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه**، تحقيق: حسن القوتلي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1399هـ ، ص250

(7) محمد الصايم، **قيمة العقل في الإسلام**، مكتبة الزهراء، 1988م، ص11

(8) الماوردي، علي بن محمد،**أدب الدنيا والدين**، دار اقرأ، بيروت، ط4، 1985م، ص8

(9) الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتـــاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـــ، ج1/ص97

(10) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط1، 1995م، ج3/ص383

(11) ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج1/ص117

(12) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **المستصفى من علم الأصول**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، ص20، الغزالي، محمد بن محمد، **احياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)(د.ت)، ج1/ص85

(13) ياسين، محمد نعيم ، **مباحث في العقل**، دار النفائس، عمان، ط1، 2011م، ص143

(14) سحنون، أحمد ، **دراسات وتوجيهات إسلامية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1992م، ص84

(15) ابن قيم الجوزية، **هداية الحيارى**، مكتبة نزار الباز، مكة، السعودية، ط1، 2004م، ص20

(16)الجهني، مانع بن حماد، **الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب المعاصرة**، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، ط4، 1420هـــ، ج1، ص22

(17) عودة ، عبد القادر ، **التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط14، 2000م، ج1/ ص17-22

(18) ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـــ، ص370

(19) العقاد، عباس محمود، **التفكير فريضة إسلامية**، نهضة مصر، ط6، 2007م، ص7

(20) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج3/ص338

(21) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج2/ص17-18

(22) الغزالي ، المستصفى من علم الأصول، ص67

(23) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى، ج9/ص278

(24) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الحدود باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً حديث رقم (4398)، والنسائي (3432) واللفظ له، وابن ماجه (2041)، وأحمد (24738) قال البخاري كما في ((العلل الكبير)) للترمذي (225): أرجو أن يكون محفوظاً، وصححه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (392/3)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (89/1): إسناده على شرط مسلم، وصححه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) حديث رقم (3432)

(25) نافذ ذيب أبو عبيدة، **التدابير الشرعية الوقائية لحفظ العقل**، رسالة ماجستير في الفقه والتشريع في كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية بنابلس في فلسطين، 2011م، ص178-179

(26) العز بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، 1991م، ج1/ ص5

(27) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج11/ ص342-345

(28) الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة، ج2/ ص63

(29) الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة، ج2/ ص35

(30) ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، **درء تعارض العقل والنقل**، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م-ع السعودية، ط2، 1991م، ج1/ ص6

(31) رحمة الله الهندي، **إظهار الحق**، دار الجيل، بيروت، (د.ط)(د.ت)، ص144، زكى شنوده.**اليهود: نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم من واقع نصوص التوراة كتابهم المقدس**،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ط1، 1974م،ص117 .

(32) شلبي، أحمد، **مقارنة الأديان: اليهودية**، دار النهضة المصرية، مصر، ط4، 1979م، ص 88، **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**، غوستاف لوبون ــ ترجمة عادل زعيتر، طبعة عيسى البابي الحلبي، ص118

(33) محمد عزة دروزة، **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**،مطابع شركة الإعلانات الشرقية، ص222، عبد القادر شيبة الحمد، **الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة**، ــ مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،2012م، ص22

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار: **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، مصر (د.ط)(د.ت)

2- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 2005م

3- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **درء تعارض العقل والنقل**، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م-ع السعودية، ط2، 1991م

4- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ، ط1، 1995م

5- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ

6- الجهني، مانع بن حماد، **الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب المعاصرة**، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، ط4، 1420هـ

7- رحمة الله الهندي، **إظهار الحق**، دار الجيل، بيروت، (د.ط)(د.ت)

8- زكى شنوده، **اليهود: نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم من واقع نصوص التوراة كتابهم المقدس**،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ط1، 1974م

9- سحنون، أحمد ، **دراسات وتوجيهات إسلامية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ط1، 1992م

10-الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد، **الموافقات في أصول الشريعة**، دار ابن عفان، ط1، 1997م

11-شلبي، أحمد، **مقارنة الأديان: اليهودية**، دار النهضة المصرية، مصر، ط4، 1979م

12-ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، دار الفكر، بيروت، ط2، 1979م

13-ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادةومنشور ولاية العلم والإرادة**،، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)

14-ابن قيم الجوزية، **هداية الحيارى**، مكتبة نزار الباز، مكة، السعودية، ط1، 2004م

15-عبد القادر شيبة الحمد، **الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة**، ــ مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 2012م

16-العز بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، 1991م

17-العقاد، عباس محمود، **التفكير فريضة إسلامية**، نهضة مصر، ط6، 2007م

18-عودة ، عبد القادر ، **التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي**، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط14، 2000م

19-الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **احياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)(د.ت)

20-الغزالي،أبو حامد محمد بن محمد، **المستصفى من علم الأصول**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م

21-ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ

22-الماوردي، علي بن محمد،**أدب الدنيا والدين**، دار اقرأ، بيروت، ط4، 1985م

23-المحاسبي: الحارث بن أسد، **ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه**، تحقيق: حسن القوتلي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1399هـ

24-محمد الصايم، **قيمة العقل في الإسلام**، مكتبة الزهراء، 1988م

25-محمد عزة دروزة، **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**، مطابع شركة الإعلانات الشرقية

26-ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط4، 2005م

27-نافذ ذيب أبو عبيدة، **التدابير الشرعية الوقائية لحفظ العقل**، رسالة ماجستير في الفقه والتشريع في كلية الدراسات العليا،جامعة النجاح الوطنية بنابلس في فلسطين، 2011م

28-ياسين، محمد نعيم ، **مباحث في العقل**، دار النفائس، عمان، ط1، 2011م

29-**اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**، غوستاف لوبون ــ ترجمة عادل زعيتر، طبعة عيسى البابي الحلبي